هدف المحاضرة الرابعة:

الهدف من هذه المحاضرة تعريف الطالب على بعض مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني كدور العلم والمكتبات العلمية وانتشار حركه التأليف

المحاضرة الرابعة:

بعض مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني:

- الأوضاع الثقافية:

أ – دور العلم

شكل اختلاط العناصر الاجتماعية في المجتمع الجزائري بداية تمازج بين الموروث الثقافي مع الثقافات الوافدة من خارج البلاد، نتج عن ذلك ظهور عدد من المدارس الدينية والفقهية، التي انتشرت في إنحاء الجزائر لتكون مراكز للثقافة العربية وقاعدتها المسجد والزوايا، إذ عمل فيها عدد من علماء الفكر والعلم من المسلمين المشتغلين بعلوم الفلسفة والفقه والأدبوباقي العلوم الأخرى، وكان لبناء الزوايا دور ثقافي واضح في النشاطالديني والعلمي، إذ شاركت في تخريج عدد من الطلبة، فضلاً عن دورالمساجد التي كانت تدرس العلوم المختلفة، وكان المسجد مكاناً للعبادةومدرسة للتعليم ودار للقضاء ومأوى للطلبة وعابري السبيل، أما الكتاب فهو عبارة عن حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد أو حتىبعيدة عنه أو غرفة في منزل، وقد خصصت لتعميم القرآن والقراءة والكتابة، والكتاتيب التي تعلم القرآن لا تخلط مع تحفيظه شيئا من العلوم الأخرى،وبلغ عددها في الجزائر نحوعشرة الاف كتاب يضم الواحد منها ما بين 20-30 تلميذاً، (العيد، 1980، ص 69)وهي منتشرة انتشاراً واسعاً في الجزائر، إذ لا يخلو منهاحي من الأحياء في المدن ولا في القرى والأرياف.

لقد كانللولاة العثمانيين تكوين ثقافي بسيط مع وجود العاطفة الدينية التي تتأجج في نفوسهم، لذلك يلاحظ على العهد العثماني في الجزائر قلة الإنتاج الثقافي، لعدم اهتمامهم بذلك الجانب الحيوي والثقافي، إلا في عدد من المدن الجزائرية التي حافظت على التراث الفكري الذي ورثته ونبغ فيه علماء وشعراء واتسع أفق أبنائها في مجالات أدبية ولغوية وعقلية مختلفة.

وقد حمل المجتمع الجزائري على عاتقه نشر التعليم متأثرا بعوامل خارجيةفي مقدمتها هجرة الأندلسيين الذين طوروا ميدان التعليم من قواعد اللغةوالأدب والعلوم والموسيقى، وذلك من خلال احتكاكهم بالأوربيين فيعصر النهضة بعد فتح الجامعات في أوربا، وبقيت اللغة العربية لغةالأكثرية من الجزائريين ، مع اتخاذ الدولة اللغة التركية كلغة رسمية، رافقذلك المناخ استعمال اللغة الخليط لغة الفرانكا عند التبادل التجاري مع الدول الأوربية التي تتعامل مع الموانئ الجزائرية،لذلك ازدهرت الثقافة واشتهر عدد من العلماء في القرنين الثامن عشروالتاسع عشر،ونستدل من ذلك على إن العثمانيين في الجزائر لم يهتموا بالجانبالثقافي بقدر اهتمامهم بجوانب الحياة الأخرى، وان مشعل العلم قد تكفلبه الجزائريون رغبة منهم في الازدهار الثقافي وللمحافظة على ما توارثوهمن علوم ومعارف عبر الأجيال كجزء من التراث العربي الإسلامي.(بوسيف، 2019، ص97).

كانت دور العلم والمدارس تمول من واردات الأملاك الموقوفة التيأوقفها أصحابها أتراكا وعرباً في إعمال الخير والإصلاح والإنفاق علىشؤون تلك المدارس، وتنسيب العلماء للتدريس فيها ومنحهم مستحقاتهمالمالية، وكان تلامذة العلم يلازمون شيوخهم لشهور أو لسنوات عدة، وفق انقياد تام لتلقي علوم الدين والفقه، ويجرى احتفال كبير بعد كلعملية ختم للقران الكريم حين يكمل التلميذ الدراسة ويمنح الإجازة التيتؤهله حق التدريس.(مسعود، 1980، ص)171

وقد حرص عدد من التلاميذ الجزائريون من ميسوري الحال على التزودبالعلم من مصادر خارجية، فهاجروا إلى المشرق والمغرب إلى مراكش وتونس ومصر والحجاز والشام والعراق، والتقوا بعلمائها وحصلوا

العلوم على أيديهم، وكانوا ينالون حظوة كبيرةحين عودتهم إلى بلدهم، إذ يقومون بمهمة التدريس ونشر ما حصلوهمن معارف جديدة، وغالباً ما يجمع إلى وظيفة المدرس وظائف أخربكالقضاء أو الإفتاء.(سعد الله،1998،ص)258.

ب-المكتبات:

وجد عدد كبير من المكتبات في الجزائر قبل مجيء العثمانيين إليها وقد حافظ عليها أبنائها في إثناء العهد العثماني أيضا، وكانت الكتب في الجزائر تكتب محليا عن طريق التأليف أو النسخ أو تجلب من الخارج، لاسيما من بلاد الأندلس ومصر والأستانةوالحجاز، كما وجلب الجزائريون المخطوطات من الدولة العثمانية وبلاد المغرب، فضلا على أن معظم الكتب قد وردت إلى الجزائر عن طريق عدد من العمال العثمانيين في الجزائر، إذ كان القضاة والدراويش والعلماء قد اصطحبوا معهم مكتباتهم وأوراقهم ووثائقهم، ومن أهم ما جاءوا به كتب الفقه الحنفي، ونسخ من صحيح البخاري، وكتب أدعية وأذكار خاصة ببعضالطرق الصوفية، وكان النسخ بالخط الأندلسي، الذي سبق الخطوطالأخرى في المغرب العربي، فضلاً عن الخط العثماني الذي جيء به إلىالجزائر، وكان اهتمام العمال بسبب التلاقح العلمي، ولم تكن للسلطة الحاكمة يد فيه، بل هو عمل إسلامي فردي. (المشهداني، 2013، ص 433).

مع سيادة العموم الدينية في العهد العثماني كان محتوى المكتبات،كتب التفاسير والأحاديث الدينية والفقه والأصول والتوحيد والعلوم اللغويةوالعقلية، إذ اشتهرت مدارس (زواوة) العلمية بالأدب والنحو والصرف واللغةوالبلاغة والعروض، أما التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وكتب الحسابوالطب والفلك فكانت قليلة، وكثرت المخطوطات في العهد العثماني، وقد وضعت في مكتباتها التيكانت منقسمة إلى مكتبات عامة وخاصة، وهي تضم مختلف المخطوطاتفي شتى الفنون، ويلجأ إليها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعةفيها، فالمكتبات العامة كانت وقفا على المساجد والزوايا والمدارس، بينما كانت

المكتبات الخاصة تنتشر في البلاد بين العائلات المشهورة بالعلموالأعيان الذين لديهم اهتمام بالكتب ونسخها.(العيد، 1980، ص 68).

كانت المكتبات موزعة بين إنحاء الجزائر، من حيث الثقافة والاعتناء بتدريس العلوم، وحسب أهمية المدن كالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان، فكان أهل قسنطينة مولعين باقتناء الكتب والبحث عن المخطوطات، بسبب وجود العلماء والأدباء المتعلمين والمثقفين فيها كان مصير المخطوطات غير أمن، إذ ضاع عدد منها نتيجة الإهمال والنهب والتهريب والحروب التي وقعت بين الجزائريين والعثمانيين أو الحروب التي حصلت مع الأوربيين، وقدسمح للعلماء بأخذ الكتب إلى بيوتهموبيع بعضها خارج الجزائر، وما يقال عن المكتبات الأخرى يقال عن المكتبات الريفية، إذ كانت لها أهمية كبيرة، كمكتبة ميزاب في بني يزقن، التي حافظ عليها أصحابها كمركز مهم لحركة الكتاب في الجزائر الغربية والجنوبية، وكما هو الحال في المكتبات الموجودة في مدن زواوة وورقلة وبجاية والخنقة، وهذا كله يدل على وفرة الكتب في الجزائر حتى في المناطق النائية، كما أن المواطن الجزائري حافظ على تلك المكتبات لما تشكله من وسيلة لنشر التعليم، وشحن أذهان العلماء والمدرسين،ويبدو إن عدم اهتمام الحكام العثمانيين بالأوضاع الثقافية في الجزائر،لم يمنع الجزائريين من استكمال ما بدؤوه من العلوم الإسلامية والإنسانية،والاهتمام بالمكتبات وثرائها بالكتب والمخطوطات والحفاظ عليها من التلف بحملها إلى أماكن آمنة، وبالتعاون مع العاملين في الجزائر لرفد المدارسوالزوايا والجوامع بتلك الكتب المختلفة، والقيام بنسخها يدوياً للنهوضبالواقع السيئ الذي فرض عليهم. (المشهداني ورمضان، 2013، ص 434- 435).

1-انتشار حركه التأليف:

كانت حركة التأليف في هذا العهد نشطة، فلا نكاد نجد عامل إلا وله قائمة من المؤلفاتفيمختلف العلوم المتداولة وقد تمثل ذلك في الشروح والحواشي والتقاييد والتعاليق والرسائل، ويمكن القول بأن أغلب إنتاج الجزائرخلال هذا العهد، يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالاتالأدبية ورغم أن معظم

الإنتاج في العلوم الشرعية كان يفتقر إلىالأصالة فإن كثرة التأليف فيه يبرهن على سيطرة العلوم المذكورة على الحياة الفكرية، ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولىإلى كون القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كان المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل ألوان تفكيرهم وأنماطحياتهم، وأهم ما تميزت به العلوم الشرعية التقليد والتكرار والحفظ، والفقهاء قلما اجتهدوا بل كانوا يقلدونسابقيهموفي حديثنا عن الحركة التأليفية لا يمكن أن نستوفي ذكر إنتاج جميع العلماء أثناء العهد العثماني، وذلك لكثرتها وتشعبها(بوعزيز، 2009م، ص 259)، لذلك سنختار نماذج من إنتاج هؤلاء العلماء البارزة في تلك الفترة:اشتهر أبو العباس أحمد المقري بكتابه (نفح الطيب) لأنه كان أول كتاب يتناول الحديث عن الأندلس بالتفصيل،

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض،روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس.

فتح المتعال في مدح النعال.

الدر الثمينفي أسماء الهاديالأمين، وقد بلغت مؤلفات المقري ثمانية وعشرين تأليفا سنة 1628(بوسيف، 2019، ص91).

ومن مؤلفات ابن الفكون: منشور الهداية، وهو أفضل ما ألفه الفكون في العهد العثمانيبالجزائر، وشرح على التعريف في علم التصوف للمكودي(سعد الله، ص 394)، كما ساهم ابن حمادوش في الحركة الثقافية بما ألفه من كتب في ميادين شتىنخص بالذكر أشهرها الجوهرالمكنون وكشف الرموز، ومن أعلام تلك الفترة أيضا الشيخ سعيد قدورة الذي ترك موروثًا ثقافيا هاما من حيث التأليف منه: شرح خطبة مختصر خليل في الفقه، وشرح النوازل التلمسانية، وحاشية على شرح اللقانيلخطبة خليل، وحاشية على شرح صغرى السنوسي، (سعد الله، ص96)ومن جهة أخرى ترك الشيخ الورتيلاني مصنفات هو الآخر نذكر منها: نزهة الأنظارفي فضل علم التاريخ والأخبار، وحاشية على السكتاني على

السنوسيوحاشية على كتاب المرادي، وقصيدة ميمية في نحو 500 بيت في مدح النبي ﷺ، كما ألف أبو راس الناصريِ كتبا عديدة حيث بلغت مؤلفاته نحو مائة واثنني وتلالين تأليفا: فتح الإلهفي التصوف إلى شرح حكم ابن عطاء الله وزهرة الشماريخ في علم التاريخ، ودرء الشقاوة في حروب الدرقاوة، وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار.

الشيخ ابن عمار الذي تنسب له مجموعة من الكتب والرسائل منها: لواء النصر في فضلاء العصر، ونخلة اللبيب بأخبار الرحلة إلىالحبيبالرحلة الحجازية، ورسالة في مسألة وقف، بالإضافةإلى ما ذكرناه سابقا من أعالم ومؤلفين نجد أيضا خلال هذه الفترة أبو عبد اللهمحمد بن أحمد المعروف بابن مريم التلمسانيقد ذكرت مؤلفاته في كتاب البستان وهي إحدى عشرة تأليفا، وكذلك ألف أحمد بن قاسم بنمحمد الساسي البوني له مؤلفات عديدة تجاوزت حسب دعواه المائة.(بوسيف، 2019، ص96).